بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 44 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة لقمان

التاريخ:15\03\2022 م كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (22)﴾.

نبدأ كالعادة في البحث السياقي في ارتباط هذه الآية بما قبلها، المعروف بين علماء التفسير أن هذه الآية مستأنفة، ولا ربط لها بالآيات السابقة، إلا على النحو الذي ذكرناه سابقاً، حيث إنه في الآية السابقة بين حالة أولئك الذين ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ فبين في هذه الآية الجديدة فئة أخرى من الناس، فئة تسلم لله تبارك وتعالى.

فيكون الارتباط بين هذه الآية والآية السابقة في سياق الحديث عن آيات ومظاهر وحدانية الله تبارك وتعالى أن هناك طائفة من الناس لا تلتفت إلى تلك الآيات الظاهرة والباهرة، بل تتبع ما وجدوا عليه آباؤهم، من دون أن يتبعوا في ذلك العلم والهدى والكتاب المنير. وهناك فئة من الناس تنبهر بتلك الآيات وتسلم لله تسليماً.

إلا أن العلامة الطباطبائي رحمه الله احتمل وجهاً آخر في هذه الآية، وهي أن تكون هذه الآية -﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ﴾ بمثابة الحال من الآية السابقة، أن تكون حالاً من مفعول يدعوهم ﴿أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾ فيكون المعنى ﴿أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾ والحال أن من أسلم والحال أن من أسلم وجهه إلى الله فقد فاز ونجا إلخ.

لكن هذا المعنى بعيد عن ظاهر الآية، وعلى خلاف الديدن في المقايسة بين الناس تجاه آيات الله سبحانه وتعالى الذي ذكرناه مراراً.

فصار الربط بين هذه الآية والآية السابقة واضحاً من دون أن نحتاج إلى جعلها جملة حالية.

أما مفردات هذه الآية فهي واضحة ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ هذه الآية بهذا المضمون تكرر في القرآن الكريم، ففي سورة البقرة جاء قوله تبارك وتعالى: ﴿بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[1] هذا التغيير في التعبير ملفت للنظر. في البقرة ﴿بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ حصلت التعدية باللام، وفي هذه الآية ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ حصلت التعدية بإلى.

جمع من علماء التفسير لا يفرقون بين هذين التعبيرين، ويرون أن اللام للغاية وإلى للغاية. فهناك عدة أدوات للغاية.

لكن كما ذكر الشهيد الثاني ﵀ في شرح قضاء اللمعة، عندما يبين ما يحتاج إليه الفقيه من علم النحو، نلاحظ هناك يركّز على أدوات الجرّ ومعاني الحروف وما تتعلق به، والقرآن الكريم نفى في آيات متعددة حقيقة الشعرية عنه، ففي الشعر تحكم الشاعر القافية والوزن، فمن السهل جداً أن نبدل حرفاً بحرف أو كلمة بكلمة رعاية للوزن والقافية، ولا نحتاج إلى تبرير ذلك، أي: مجرد الوزن والقافية يكون مقبولاً.

إلا أن الأمر ليس كذلك في القرآن الكريم، الذي من المفترض أنه معجزة، وأن إعجازه الأول في بلاغته وفي فصاحته، وبهذا فاق كلام العرب من منظومهم ومنثورهم، فلا نستطيع حينئذ أن نمر على هذا التفاوت مرور الكرام.

لابد أن نلتفت إلى سياق الآية في سورة البقرة، ففي سورة البقرة كما هو الغالب في آياتها الكلام عن بني إسرائيل والكلام عن أهل الكتاب، فآية سورة البقرة وقعت في هذا السياق ﴿وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾[2].

في هذا الكلام بين تبارك وتعالى أن جمعاً من أهل الكتاب يرون أنفسهم أنهم شعب الله المختار، وأن الجنة لم تكتب إلا لهم، فيطالبهم الباري تبارك وتعالى بالبرهان، ثم يبين لنا أن هؤلاء ليسوا فقط لا برهان لهم، بل البرهان قائم على خلافه، فإن هؤلاء قتلة الأنبياء، الذين يؤمنون الكتاب ويكفرون ببعض، الذين فعلوا ما فعلوا بأنبيائهم، هؤلاء تكون لهم الجنة؟ في قبال فئة أسلموا وجوههم لله؟

---

[1] البقرة 112
[2] البقرة 111

في مثل هكذا سياق أنت بحاجة تأتي في برهانك بأرفع طائفة، كي يكون الأمر في غاية الوضوح، أي: إذا واحد في صف المدرس كسول، وهذا الكسول يدعي أنه هو الأولى، حتى ترده ببرهان واضح وقاطع لا بد أن تأتي بأفضل نموذج في الصف، يكون البرهان في غاية الوضوح، فجاء قوله تبارك وتعالى ﴿بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾.

أما في هذه الآية نتكلم عنها الباري تبارك وتعالى يريد أن يعطي حكماً لطائفة، هذه الطائفة لو أعطاها حكم الثواب في مرتبتها الدنيا، فمن باب أولى أن تحصل على ذلك الثواب في مرتبتها العليا، فلذا اختلف التعبير، ففي قوله: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ لأن إلى لانتهاء الغاية، ولكن لا تدل على أنه وصل إلى الغاية، ربما يكون ما زال في الطريق.

بينما في قوله: ﴿بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي: صارت وجهته هي الله، زاب في أفعاله ومواقفه وسيره وسلوكه في الله، هذه مرتبة أعلى من هذه المرتبة.

هناك لما كان في مقام إقامة البرهان، البرهان الواضح لابد أن يأتي بالمرتبة العليا، هنا لم يكن في مقام إقامة البرهان، يريد أن يقول: في مقابل تلك الفئة هناك فئة أخرى لها هذا الثواب، ويكفي في مرتبتها الدنيا لتدل من باب أولى أن المراتب التي هي أعلى لها هذا الثواب وما هو أعظم منها، هذا هو السر في التفاوت -والله العالم- بين هذه الآية والآية المذكورة في سورة البقرة.

إذن ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، يسلم ومحسن، إشارة إلى ركني الإيمان، الاعتقاد والعمل. فتكون نظير ما يأتي في آيات كثيرة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فما هو جزاؤه؟

أولاً: في هذه الدنيا ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ فقد استعان بحبل غير قابل للانقطاع، فمن يسلم وجهه وذاته ووجهته إلى الله تبارك وتعالى يكون قد أخذ بحبل متين لا ينقطع، يعينه في هذه الحياة الدنيا ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ وتكون النتيجة في الآخرة ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

فإذن نلاحظ في هذه الآية أن الإيمان والعمل الصالح هو ضمان للإنسان في هذه الحياة؛ لأن العروة الوثقى هي الضمان، فإذا أخذ بهذا الضمان في هذه الحياة، فإنه يضمن النتيجة في العاقبة في يوم

القيامة، ﴿وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾؛ لأن ذلك الإنسان الذي يعرف بأنه سوف يصل إلى مضيف له في مكان ما، وقدم له الهدايا والطاعات والتسليم قبل أن يصل إليه، فإن عاقبته في ذلك المكان تكون أيضاً مضمونة، ﴿وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾«